مواظباً على ذكر الهدف ثم يواظب عليه إلى أن تمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة . ويبقى معنى الكلمة مجرداً من قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد . وعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته فلم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في نفسه .

ولا شك في أن هذه الطريقة التي ذكرها الغزالي للحصول على الإلهام هي الطريق التي تسلك أيضاً لإيجاد اليقين الذي يستولي على القلب . وعلى كل حال فهي الاستهواء الذاتي بعينه ولكنه من النوع القوي الذي يؤدي إلى ذلك الشيء الذي يسميه علم النفس الحديث بأقسام الشخصية .

محمد الحسيني

صفحة أدب التاريخ

سفارة موسيقية

من مصر إلى مراكش

للاستاذ محمد سيد كيلاني

كان عام ١٩٠٤ نهاية التنافس الاستعماري بين إنجلترا وفرنسا فعقد بين الدولتين اتفاق ودي بمقتضاه تسيطر إنجلترا على مصر في نظير اعترافها لفرنسا بحق السيطرة على مراكش . وقد قلقت النفوس في مصر ومراكش من جراء هذا الاتفاق واضطربت الخواطر وسادت الكآبة رغم الحزن . وبينما كان الناس متجهين بعواطفهم نحو مراكش يرقبون في جزع شديد ما سوف يقع على هذا الشعب المسكين من بطش الاستعمار الفرنسي وجبروته إذا بصحيفة المؤيد تطلع على الجمهور بعددها الصادر في ٩ مارس سنة ١٩٠٤ تحت العنوان المتقدم بالنبأ الآتي :

« هذه السفارة ليست من حكومة مصر بل من رعايا دولة الغرب الأقصى في مصر إلى مولاي عبد العزيز سلطان تلك الدولة وهي مؤلفة من ثمانية أشخاص بين مغن ومغنية وموسيقي قد اتفق معهم حضرة الحاج محمد شقرون وكيل دولة الغرب الأقصى سابقاً في مصر على السفر بالمرتبات التي تقررت لهم وهي المذكورة بإزاء أسمائهم ولولا أن أحد محرري الجريدة شاهد بعينه أوراق السفر في الدرجة الأولى والعقود المختصة بذلك ما صدقنا الخبر الذي يراه كل إنسان ملم بأحوال دولة الغرب الأقصى، ومشاكلها المالية والسياسية الآن في غاية الغرابة .

وقد استلمت جوقة الطرب المصرية جوازات السفر وتذاكر الوابور في الدرجة الأولى لجميعهم وأجرة ثلاثة أشهر مقدما على الحساب الآتي :

المرتب الشهري بالجنيهات	الاسم	الصنعة
٤٥	علي الرشيدي	عواد
٦٥	مرسي بركات	قانوني ومغن
٢٥	فريد شلهوب	كنجاني
٣٠	محمود حمدي	مغن
٢٠	محمد السيد	«
١٤٥	نظيرة سلطانة	عوادة ومغنية
٦٠	لطيفة سلطانة	مغنية

وربما كانت هذه الجوقة أكبر وفد مصري ذهب إلى بلاد مراكش بألطف معنى من معاني التواد والتواصل بين الأمم وبعضها ، فعسى أن تكون هذه السفارة فاتحة خير بين المملكتين وعسى أن يتعود مولاي عبد العزيز بعدها على رؤية الوفود تأتيه من البلاد الشرقية فينتفع منها لكل أرب بعد هذا الطرب »

وما كاد الناس في مصر يقرأون هذا الخبر حتى وقفوا أمامه متعجبين مندهشين وثارت خواطر الغيورين على صالح المسلمين ضد سلطان مراكش وشرع الكتاب ينشرون المقالات ناقدين مسلك السلطان نقداً عنيفاً مرا ، حاملين عليه حملة قاسية ، وقد اضطلعت صحيفتا اللواء والمؤيد بعبء تلك الحملة التي ساهم فيها مصطفى كامل بقلمه ونفث من روحه عبارات حماسية رائعة ضد السلطان عبد العزيز وكال له التوبيخ والتقريع ووفى الكيل . وإلى جانب ما في هذه المقالات من نقد وتجريح ترى مقالات أخرى

يغلب عليها روح التهكم والسخرية ومثال ذلك ما جاء فى المؤيد بتاريخ ٢٨ مارس من تلك السنة وهو : « يظن أن أنباء صدى جوقة الطرب وصلت إلى عظمة مولاى عبدالعزيز سلطان مراكش فى الوقت الذى وصلت فيه إلى عظمته أنباء بوادر الاتفـــاق الإنكليزى الفرنساوى بشأن مراكش . وقد ذكر لنا ثقة أن مكاتب البلاط المراكشى فى مصر بعث إليه يقول إن الاتفاق قد تم مع أحسن جوقة طرب مصرية كل فرد من أفرادها صفوة أهل فنه . فمتى وصلت إلى الحضرة السلطانية المراكشية وصدع موسيقارها وغنى مغنيها قالت الحضرة الشريفة على الدنيا كلها السلام .

أما مكاتب التيمس فى طنجة فقد بعث لجريدته يقول إن أنباء بوادر الاتفاق الإنكليزى الفرنساوى بشأن مراكش قد وصلت إلينا وأرسلت إلى سلطان المغرب، وكبار الأهالى ينتظرون بقية التفاصيل انتظار الظمآن للماء ... الخ »

صدى جوقة الطرب :

تحت هذا العنوان أفسحت المؤيد مكاناً للشعراء فأخذوا يتبارون فى نظم المقطوعات وكلها تفيض بالهجاء الموجع والنقد المؤلم والتهكم والسخرية وإظهار الأسى والحزن على ما وصلت إليه أحوال البلاد المراكشية . قالت صحيفة المؤيد « رجاءتنا مقطعات كثيرة من بعض أفاضل الشعراء فى هذا الباب فمنعنا عن نشرها غلو أصحابها فى الألفاظ الموجهة لسلطان الغرب .

فعلى الذين يجودون بأدبهم على القراء من هذا المعنى الجديد أن يراعوا مقام من يتعلق به الكلام ، ولكل مقام مقال . »

وهذه العبارة تكفى للدلالة على الأثر السيء الذى تركته فى النفوس تلك السفارة الموسيقية التى أقام بها سلطان مراكش فرحاً فى وسط المآتم والمحازن التى كان يقيمها أفراد شعبه . ومع ذلك فإن الشعر الذى نشر فى ذلك الوقت يفيض بالأسى والحزن ويعرب عن حقد شديد على هذا السلطان العابث . ومثال ذلك قول حافظ إبراهيم :

عبد العزيز لقد ذكرتنا أمما ... كانت جوارك فى لهو وفى طرب
ذكرتنا يوم ضاعت أرض أندلس ... الحرب بالباب والسلطان فى اللعب
فاحذر على التخت أن يسرى الخراب له ... فتخت سلطانة أعدى من الجرب

وفى هذه الأبيات يقف الشاعر حزيناً متحسراً لتلك الحال التى ذكرته بما كانت عليه الأمور فى بلاد الأندلس من اختلال، متوقعاً لمراكش نفس المصير الذى لاقته بلاد الأندلس من قبل نتيجة لانغماس ملوكها فى اللهو واللعب، وإهمالهم لشؤون الملك حتى ضاع من أيديهم فناحوا بعد ذلك عليه كما تنوح النساء ولم يجدهم ذلك نفعاً وذهبت البلاد من أيديهم . وقد حاول حافظ أن يسوق هذه الذكرى المؤلمة لسلطان مراكش لعله ينتفع بها ويقام عن غيه ويعمل لما فيه صالح رعيته قبل أن يغرقه الطوفان .

وقال آخر :

قالوا الخليفة فى فاس أحق بها ... من فرع عثمان فرع الفضل والجود
فقلت إن صدقت دعواكم التمسوا ... خليفة الله بين الناى والعـــود
شر الخلافة ما قد بات صـــاحبه ... ما بين «سرسى وشلهوب ومحمود»
وبين «سلطانة» لا بين سلطنة ... تلهيه عن كل تدبير وتسـديد
يامرخيا لهوى النفس العنان أفق ... واشفق على رمـــق باق به تودى
هلا نهاك اتفاق «الدولتين» غداً ... عن اتفاق مع القينـات والغيد

وهذه الأبيات تمتاز بأنها تتناول حال سلاطين تركيا وحال سلاطين مراكش بالموازنة . والشاعر هنا يرد على من يريدون نقل الخلافة من سلاطين تركيا إلى سلاطين مراكش الذين يدعون الانتساب إلى الرسول فيسفه آراءهم ويخطئ أفكارهم ويقول لهم انظروا إلى هـــذا السلطان المراكشى الذى يريدون تنصيبه خليفة للمسلمين فهو عاكف على اللذات منغمس فى الشهوات منفق المال بغير حساب على المغنيات . ومثل هذا السلطان لا يصلح بالطبع لأن يشغل منصب الخلافة . ثم ختم هذه الأبيات بالوعظ والتذكير والتوبيخ والتقريع الذى ساقه إلى السلطان فى

غير رفق ولا لين .

وقال أحمد الكاشف :

من كعبد العزيز أقوى على الدهـ ـر يلاقى الخطوب سمحا أبيا
زلزلت أرضه فنمى على زا زالها ناعم الفؤاد طروبا

وفى هذين البيتين سخرية مرة وتهكم شديد . فالشاعر يظهر العجب من شدة بأس السلطان وقوة احتماله . فهو لم يجزع للخطوب ولم يتحرك للحوادث الجسام التى أحاطت به ، بل قابل الشدائد باللهو واللعب . ولما زلزلت الأرض تحته لم يفزع ولم يخف بل جلس على أنقاض هذه الزلازل يستمتع بالغناء والرقص والخمر .

وقال :

لاتلوموا خليفة الغرب فى اللهـــو فما غيره عزاء لنفسه
نظر الخطب وهو لا بد منه فتحاشاه فى مجالس أنسه
ربما مثلت له حبب الكأ س شهابا فظنه بعض بأسه

وفى البيتين الأولين يصور الشاعر السلطان فى صورة من يهرب من الحزن والغم إلى مجلس أنس ليبعد عن نفسه متاعب الأحزان وآلامها ، ويجد فى الخمر والغناء عزاء لنفسه وتسلية لها حتى لاتسترسل فى الهموم فتهلك . وفى البيت الأخير يسخر الشاعر من السلطان سخرية مرة ويتهكم منه تهكما قاسيا مضحكا . وقال :

عبد العزيز علام تلهو بالصبا لهو المؤمل أطول الآجال
وإلام تسمع مطربيك وقد علا صوت النذير بأعجل الأهوال
فلقد أجرتهمو ثلاثة أشهر هلا أجرتهمو ثلاث ليالى

وفى هذه الأبيات لانسمع سوى التوبيخ والتعنيف والتقريع الشديد المؤلم ، والتحذير والترهيب من سوء العاقبة .

وقال آخر :

إيه عبد العزيز أى شهاب أنت فى ظلمة القضاء المخيف
يرسل الخطب كل يوم نذيرا فتراه بالناظر المكفوف
كيف يصغى إلى النذير فؤاد ملأته « سلطانة » بالعزيف
أنت كالقدر تبلغ النار منها فتفنى كالواله المشغوف
خطر حاضر وآخر آت وحتوف نذيرة بحتوف
وعدو إلى افتيالك ظام ظمأ الصب للمى المرشوف
هو فى حومة وأنت بأخرى بين بيض كبيضه وصفوف

فالدم الراح والجنود سقاة وقراع الظبا رنين الدفوف

فانظر إلى مافى هذه الأبيات من الصور والمعانى وعبارات الهجاء اللاذع كما فى قوله «أنت كالقدر ..» وإلى مافيها من التهكم والسخرية ، والموازنة بين حالة الفرنسيين الذين كانوا يجدون فى امتلاك مراكش ومايقابل ذلك من غفلة السلطان وقعوده عن الذود عن بلاده ، واشتغاله بتوافه الأمور وركونه إلى اللهو واللعب . وأنه لم يجد أمامه مايفعله بإزاء تلك الخطوب التى حاقت ببلاده سوى إنفاق الأموال الطائلة على المغنيات فى الوقت الذى اضطربت فيه الأحوال المالية فى بلاده اضطرابا مهد للفرنسيين السبيل لبسط حمايتهم على البلاد وإذلالها .

وقال أحمد نسيم :

ليتنى قادر على اللهو يوما فيه يشجى الفؤاد نقر الدفوف
غن عبد العزيز فى كل خطب هذه عيشة الفتى الفيلسوف

لم يستطع أحمد نسيم وكان أجيرا لسلطات الاحتلال فى مصر فى ذلك الوقت أن يقول أكثر من هذا . وماذا يقول وهو الذى كان يشيد بفضل الاحتلال البريطانى ويسبح بحمده ؟ والاتفاق الودى أثر من آثار هذا الاحتلال . وفيه اعترفت فرنسا لإنجلترا بمركزها فى مصر كما أطلقت بريطانيا يد فرنسا فى مراكش . فأحمد نسيم اعتبر سلطان مراكش فيلسوفا يعيش عيشة الفلاسفة . وهو يحض السلطان على سماع الغناء والانغماس فى اللذات فى أوقات المحن والخطوب . فإن هذا العمل فى نظر أحمد نسيم شاعر الاحتلال من الأعمال المحمودة التى تليق بالفلاسفة فى نظر هذا الشاعر هم الذين يتركون شعوبهم تموت جوعا ، بينما هم ينغمسون فى الشهوات دون حسيب أو رقيب .

وقال إمام العبد :

لاموا الفتاة وما درت بطبولها إلا لتوقظ أمة نعسانه
لما رأت سلطانهم فى نشوة راحت تدبر شؤونهم «سلطانه»

ومن قال الإمام العبد إن الأمة المراكشية كانت نعسانة ، وأنها كانت فى حاجة إلى السوط والقانون لتستيقظ على أنغامها ؟ أما قوله إن السلطان كان فى نشوة فهذا صحيح . أما قوله « راحت تدبر شؤونهم سلطانه » فخطأ محض ؛ لأن الفرنسيين لم يقفوا متفرجين